كانت عذراء

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 3460 / 2020

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 459 – 8

الكتاب: كانت عذراء

المؤلف: محمود زيدان

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

كانت عذراء

مجموعة قصصية

محمود زيدان

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إهداء..

إلى الطيبين في بر مصر..

إلى كل من تمسّك بالأمل.. إلى أبي الحاج كمال زيدان.. الذي علمني مواجهة الحياة ..

إلى أمي التي ربتني.. وزوجتي الحبيبة رفيقة الدرب.. وابنتي الغالية آمنة.. حلمي الكبير..

وكل من أمسك بكلماتي باحثًا عن نفسه..

محمود زيدان

القاهرة ١٣ يناير ٢٠٢٠

درب الجنابن!

كان الطريق الواصل بين مدخل القرية والمنطقة السكنية بها مرورًا بالزراعات طويلًا وموحشًا، خاصةً في ساعات الظهيرة من شهر بؤونة، ورغم سقوط ظلال النخيل التي تعطف على السائرين نهارًا إلا أن علو الأسوار وأشواكها على جانبي الطريق جعلته نفقًا فوق الأرض، خانقًا وعازلًا لكل من يسكله نهارًا، فما بالنا بذلك الذي يوقعه حظه العثر وتجبره الظروف على السير به ليلًا.

«درب الجنابن» ذلك الطريق المهلك المميت، الذي تناقل أهل القرية عنه حكايات الجن والعفاريت منذ أن اشترى الخواجة «وليم» الجنينة الكبيرة، واضطر تحت ضغوط من الأهالي إلى فتح طريق لهم جعله مغلقًا من الجانبين، حيث أنشأ سورين على كل جانب يرتفعان أكثر من 4 أمتار، وينتهيان بأشواك السنط والنخيل وقطع الزجاج المكسور لكي لا يفكر أي لص في تسلُّق السور مهما بلغ من مهارة أو قوة، وقد كان الطريق يضم المتسكعين ليلًا

من الحشاشين والسكارى، بينما يقوم قصاصو الحمير بممارسة أعمالهم به في ساعات النهار كل يوم خميس بعيدًا عن سوق القرية الذي كان يُقام في ذلك التوقيت.

لم أكن أنا وشقيقاتي من البنات نمشي فى ذلك الطريق أبدًا، وذلك لمِا سمعناه من أهوال تعرّضن لها بنات القرية أو نساؤها من المجرمين، فلا تستطيع الذاكرة نسيان حكاية «جواهر» التي اضطرت إلى الهروب من زوجها بسبب تهديده بقتلها بعد أن علم أنها تحدثت إلى أهلها رغم تحذيره لها بمقاطعتهم وسلكت «درب الجناين» نهارًا، إلا أن أحد أبناء الحرام هجم عليها في وسط الطريق واغتصبها وكتم أنفاسها ولاذ بالفرار تاركًا طفلها الرضيع بجوارها حتى وجده الناس، ولم يعرف أحد هوية القاتل حتى اليوم.

وحتى الرجال لم يسلموا من ذلك الطريق، فقد حكت لي عمتي «زهرة» أن «إسماعيل» الابن الأكبر لجارنا «إبراهيم» مات من «الخلعة» بعد أن ظهر له «صن الحرجة» وطالبه بتسلق سور الجنينة لكي يحضر له ملابس قاتله وأدوات الجريمة المدفونة هناك لكي تظهر الحقيقة، إلا أن «إسماعيل» الذي كان عائدًا حينها

من معسكر التجنيدلم يستطع تلبية طلب العفريت، وظلا يتعاركان حتى بزوغ الفجر، سقط بعدها المجند مغشيًا عليه حتى وجده أهل القرية ونقلوه لمنزله متيبس الأطراف حتى لفظ أنفاسه بعد 6 شهور من الحادثة.

كانت جدتي «فتحية» تنهر عمتي «زهرة» وأمي «نعيمة» عن حكايات العفاريت والجن و»درب الجناين»، ورغم ذلك كنا نستمتع أنا وشقيقاتي البنات وأخي الصغير «علي» وننصت بنهم لكل كلمة تنطق بها عمتي التي كانت تملك أسلوبًا نادرًا وجميلًا في الحكي عن تلك القصص، وكنا نطالبها بالمبيت معنا ونتسابق في إرضائها بتلبية طلباتها طوال اليوم بسبب جلسة السمر عن العفاريت.

رغم حالة الرعب التي تسببها لنا حكايات عمتي «زهرة»، إلا أننا كنا نعشقها عشق المضطر، فقد أثّرت علينا تلك الحكايات في التحرك ليلًا بالمنزل، فقد كان الذهاب إلى الحمام في آخر المنزل قرب حظيرة المواشي شيئًا من الخيال، وكنت لا أتحرك لكي أحضر الماء من الزير أو حتى رغيفًا من الخبز أو بصلة من حجرة الخزين إلا بمرافق من إخوتي، الذي يكون دائمًا شقيقي «علي» لأنه أشجع منا -نحن البنات- في كل الأحوال.

وظلت تلك الحكايات عالقة برأسي حتى بعد أن تزوجت واندثر التاريخ القديم لـ «درب الجناين» وظل شبح «صن الحرجة» في مخيلتي حين أستمع لأحد برامج الراديو التي تحكي قصص الرعب أو أرى فيلمًا مرعبًا عن الأشباح، أو حتى أقرأ عن قصة دجال يعالج الملبوسين من الجن.

أدركت مؤخرًا أن جدتي على حق حين كانت تنهر عمتي عن تلك الحكايات المرعبة؛ لأن كل ما قيل عنها ما زال محفورًا بأذهاننا، وكان يصيبني الخجل حينما أتحدث لزوجي أستعجله للعودة إلى المنزل مبكرًا قبل منتصف الليل لأنني لا أستطيع النوم وحيدة قبل أن أنجب أبنائي الذين يسخرون الآن مني لأنني أخاف البقاء وحدي بالمنزل وأجبرهم على المكوث معي فى غياب والدهم قائلين: «ماما بتخاف من العفاريت».. أدركت حينها أن حكايات «درب الجنانين» ستطاردني إلى الأبد.

الانتقام في القرية!

شقت صرخة عنان السماء بعد دقائق من سماع دوي طلقة رصاص مكتومة تلاها سيل من الطلقات المتلاحقة من أسلحة متعددة، لتختلط أصوات الصراخ بضرب النار، لتوحي لنا بحدث جلل قد وقع ستليه أحداث أخرى أشد ضراوة مما حدث.

هرعنا في دقائق معدودة إلى مصدر الصرخة التي جالت صاحبتها القرية وهي تهتف: قتلوا «محمود».. قتلوه ظلم ولاد الكلب.. وقطّعوه زي الدبيحة في الشارع قدام بيت «نجية العرجه»..

وصلت في لحظات إلى مسرح الجريمة فوجدت وحشًا ممددًا بعرض الطريق، حفر الأرض بأظافره من شدة الفرك وتشربت الأرض كثيرًا من دمائه، ورغم تغطية الجثة بكبرتاية من القماش إلا أنني بنظرة خاطفة تفحصت ملامح جسم الرجل العملاق، وجدت يده ما زالت ممسكة بشومة مطرزة بالدبابيس ومسدس والتر ألماني من النوع القديم ما زال مشطه مسحوبًا بعد فراغ

الخزنة من الرصاص، وبينما أتفحص أسلحة الرجل توقفت منتبهًا لذلك التجويف في الغطاء عند الرأس، الذي كان يجب أن يكون مرتفعًا، وبدد حيرة أحدهم عندما همس قائلًا: «لا حول الله» والحق بيتاخد كده؟.. دول قطعوا راسه وخدوها».

تسمرت قدماي وسألت نفسي بشغف.. إزاي قطعوها؟ وليه؟ هما جزّوها بمحشّة ولا بسرّاق ولا بساطور ولا بسكين؟ وخدوها ليه؟ ومين دول اللي قتلوه؟ وليه؟ استيقظت على تحذير من أحد الخفراء بقرب قدوم الحكومة بما لها من جبروت بعد كل حادثة قتل في قريتنا، ومحاولات من زملائه بصرف الناس عن المنطقة المشئومة التي حدثت بها طريقة خاصة من القتل في وضح النهار يوم الجمعة والناس ما زالت تستمع للخطبة في المساجد.

لم تمنعني التحذيرات من البقاء، وظللت منتظرًا حتى أتى رجال الحكومة الضباط والمأمور على الخيول، والعساكر مترجّلون مع قرب حلول صلاة المغرب، وبدأوا فى إجراءات معاينة الجثة ومع أول خيوط الظلام كان الأهالي قد دفنوا الجثة بدون الرأس التي أخذها أبناء «بيت الحامي» وهربوا إلى الحرجة،

وهي منطقة زراعية قريبة من الجبل الغربي فى قريتنا، وخلال أيام بدأت رحلة سهلة بالنسبة للحكومة، وهي القبض على النساء من الأهالي أصحاب الخصومة الثأرية من الطرفين للضغط على الرجال لتسليم أنفسهم.

سلّم الرجال أنفسهم 7 من العائلتين «بيت الحامي» و«علام»، وخرجت النساء بمجرد وصول المطلوبين إلى مركز قنا، وخلال التحقيقات اعترف 3 منهم بقتل «محمود» وقطع رأسه ثأرًا لابن عمهم «حسان» بعد مقتله ليلًا على يد المطاريد بمشاركة الرجل العملاق، وبعد انتهاء النيابة من تحقيقاتها أفرجت عن أفراد «بيت علام» بضمان محل إقامتهم مع أخذ تعهد بعدم التعرض لأحد من «بيت الحامى»، وقضت المحكمة بعد عدة جلسات بالسجن 15 عامًا لكل من المتهمين الأشقاء الثلاثة «حسين» و«جعفر» و«عليان»، وخلال تلك الفترة عاش بيت الحامي أحلك أيامهم بسبب الخوف والتربص والأخذ بالثأر من أي من أفرادهم بطريقة أبشع حتى بدأت الأمور في الهدوء بمقتل «عليان» وهو أصغرهم داخل السجن، وخروج «جعفر» أكبرهم مصابًا بالجنون، بينما خرج حسين شخصًا آخر غير الذي دخل لأن السجن غيّره كثيرًا.

توالت السنون ومعها الحكايات، وأنجب رجال العائلتين أبناءً وأحفادًا، وظلت فكرة الثأر والانتقام مسيطرة على كل طرف؛ «أحدهما» خائف من انتقام الآخر أخذًا بالثأر، والآخر متحفّز لتلك اللحظة وينام مثل الذئب بجواره سلاحه ليدافع عن نفسه في أي لحظة، وكانت تحركات «بيت الحامي» محسوبة .. لا يروون الأرض ليلًا، ولا يجلس أحد في مقهى «غرزة» منهم بمفرده، أو يذهب لحقله في الصباح الباكر بمفرده، وكان أبناء العمومة والخالات هم السند والداعم دائمًا لهم لأنهم مهما حدث لن يطلق أحد النار أخذًا بالثأر أثناء تواجدهم طبقًا لعرف وتقليد الدم.

بددت حكايات جدتي كل تساؤلاتي وأنا صغير عن تلك الحادثة التي عشت تفاصيلها وقت حكاية بيت «الحامي» وتارهم مع بيت «علام»، بعد أن تشاجروا بسبب قيام ابن عم «محمود» الأصغر بسرقة شال مصنوع من صوف النعاج من «حسان» نجل عم أولاد علام، حينما أوعز له المطاريد بذلك، والرجل نائم، وبدأت الحكاية من تلك الليلة المشئومة ليصبح شال الصوف سببًا في عداء بين 2 من أكبر عائلات القرية،

وتتحقق مقولة «الميت بيقول لأهله لو أخذوا بتاره بعد 40 سنة .. بدرتوا» أي استعجلتم.

قالت لي جدتي: إن الأخذ بالثأر في وضح النهارد إثبات للقوة والقدرة على تنفيذ الانتقام، أما فصل الرأس فهو أمر خارج التقاليد المتوارثة، فقد فعلها رجال «بيت الحامي» تحت ضغط المعايرة بعدم الأخذ بالثأر في أي مشادة كلامية تحدث بين أحد الرجال أو حتى النساء والأطفال منهم، وبين أي طرف آخر وحتى أحقر الناس وأقلهم في الحسب والنسب من أهالي القرية.

تواترت الحكايات عن الذي فعله «بيت الحامي» برأس ابن «بيت علام» فمن الناس من قال إنهم أحرقوها بحضور الجميع في منزلهما حتى تفحمت وألقوا بها في الجبل، ولكن تبددت حكاياتهم بعد البحث عنها بعدم ظهورها في الجبل، ومنهم من قال إنهم قطّعوها وألقوا بها لكلابهم الستة لتأكلها، بينما كانت الرواية الأشهر أنهم كفنوها ودفنوها في منزلهم تخليدًا لذكرى الثأر مدى الحياة، وهو ما ظهر بعد ذلك للناس فى هيئة عفريت بجسم صغير ورأس كبير بملامح مشابهة لتلك التي كانت ترتسم على وجه القتيل.

ورغم مرور أكثر من 70 سنة على الحادثة، إلا أنها ظلت عالقة في أذهان الجميع في قريتنا خاصة عائلة «بيت علام» بعد توارثها من الأجداد إلى الأحفاد، الذين ما زالوا يحملون نفس الروح للانتقام في اللحظة السانحة ولكن بطُرق أخرى.

المنحرف!

كنت أنا وخالد أصدقاء وزملاء بالمعهد الأزهري الإعدادي بقنا، وكانت تجمعنا صلة قرابة حيث كان هو ابن بنت خالة والدي، التي كنت أحبها مثل عماتي وخالاتي نظرًا لعطفها ومعاملتها الحسنة لي تمامًا مثل ابنها خالد، الذي كان أكثر مني شطارة في الدراسة، وكان يلقى ثناء جميع من في العائلة بسبب التزامه، فهو يستذكر الدروس أولًا بأول، ويقرأ كثيرًا، ولا يميل للعب مثلي، بل حتى حينما كنا نذهب إلى الحقل بالقرب من النيل لم يكن يترك الكتاب ونحن نرعى الغنم سويًا.

ترك خالد في نفسي بعض الغيرة منه، وتمنيت كثيرًا أن ألقى ما يلقاه من الثناء والإشادة من الأقارب جميعًا، وكان أبي يوبخني كثيرًا بسبب خالد من خلال المقارنة بيني وبينه ودائمًا ما يقول لي: «خالد أشطر منك ابن الراجل الأهبل»، -في إشارة إلى والد خالد الذي كان يعاني من البلاهة وضعف النطق- في مقارنة بيني وبينه من حيث الوضع المادي والاجتماعي،

وحتى المأكل والملبس وغيرها لترجح دائمًا كفة خالد أمام كفتي في النهاية.

كانت عقدتي خالد، ورغم ذلك كنت عقدته من حيث الصفات التي عددها والدي لي قبل ذلك، فقد كان خالد يشعر بالنقص أمام الجميع، حيث كان يقطن بمنزل متواضع أشبه بالكوخ تتوسطه شجرة جميز كبيرة تضلل على الأسرة في الصيف وتمنع الشمس في الشتاء عن دخول المنزل منذ عشرات السنين، وكنا نعاير خالد بالجميزة ونقول له دائمًا: «ملابسك بتنشف أمتى تحت الجميزة دي».

مرت السنوات وكبرنا أنا وخالد والتحق هو بكلية الهندسة جامعة الأزهر بأسيوط، بينما كانت كلية الشريعة والقانون من نصيبي، وبدأت صعوبات الدراسة تظهر لي على السطح مرة أخرى، فقد كان أصعب المواد هو القرآن الكريم الذي كان الامتحان فيه شفويًا وتحريريًا، بينما كان خالد كعادته ينجح كل عام بتقدير جيد على الأقل، رغم أنه لم يكن مقتنعًا بالتعليم الأزهري، حيث كانت له سلوكيات شاذة رغم تفوقه الدراسي، فقد كان يعاكس فتيات المدرسة الثانوية بنات ونحن في طريقنا إلى المعهد الديني، وحتى سلوكه في قضاء حاجته الذي كان

يطيب له فعلها بكل ارتياح في نهر النيل لتظهر وراءه قطع صفراء مقززة ينال منا بسببها الشتائم واللعنات وهو يستحم دون قطعة ملابس واحدة تستر عورته، وحتى سلوكه مع الحيوان فقد كان انتقاميًا يضرب حمارهم بِغل شديد، ويحمل عليه دائمًا ما لا يطيقه من البرسيم، كلها أشياء كانت تنفي عن خالد صفة الطالب الأزهري المعمم.

فترت علاقتي بخالد ونحن في الجامعة بعض الشيء، وفي إحدى الإجازات التقيت بخالد في قريتنا بقنا وأخبرني أن هناك دروسًا فى المسجد بعد العشاء من بعض مشايخ قرية مجاورة لنا كانت شهيرة بتعليم أبنائها، وذهبت معه وانتظرت بعد الصلاة وكان المشايخ ما هم إلا مندوبو جماعة جديدة لم يكن لها وجود في قريتنا، وهي الجماعة الإسلامية من أصحاب اللحى الطويلة والجلابيب القصيرة الذين تواصلوا مع خالد في جامعة أسيوط تحت اسم طلاب التيار الإسلامي، حينها بدأ خالد في تقصير ثيابه والتطيب والحفاظ على الصلاة في المسجد، بل وإمامة الناس، وخطوة بخطوة بدأ يعتلي المنبر ويخطب في الناس عن الحلال والحرام، وفجأة أُلقيَ القبض عليه وظل 4 أشهر في مباحث أمن الدولة.

تهامس الناس عما فعله الأمن بخالد وقتها وتعذيبه طوال الأشهر الأربعة، وتشتت الأم والأب وراءه في معتقلات وادي النطرون وسجن قنا العمومي وغيرها، حتى أفرج عنه بعد تهذيب سلوكه، بل وجعله عميلًا لمباحث أمن الدولة ينقل لهم أخبار كل من يجد فيه فريسة سهلة لأفكار جماعته، حتى بات منبوذًا بين أهل القرية وهو الذي كان مشروعًا لشيخ كبير يقارب في علمه عمر عبد الرحمن وناجح إبراهيم وكرم زهدي وغيرهم من قيادات الجماعة الإسلامية.

وبمرور أشهر قليلة بدأ خالد يعدّل من سلوكه، فقد ترك الحرص على الصلاة في المسجد، وتناسى أزهريته، وبدأ يتلفظ بألفاظ أهل الأسواق، وانخرط مع خاله «ناصر» السكير في تجارة المواشي وذبحها، واتجه لتجارة الموز، ودخل في معترك الحياة، وبدأت الأموال تنساب بين يديه، واشترى سيارة ربع نقل بدأ يتاجر بها في الفاكهة بالإضافة إلى المواشي، وتعددت علاقاته النسائية بالمنحرفات في القرية والقرى المجاورة، والتصقت الأفعال الشنعاء بصفاته، وربطته علاقة حب بعاهرة أربعينية كان زوجها يعمل بالخليج استغلت غيابه وسافرت مع خالد إلى الغردقة

والإسكندرية بحجة أن معها أختها التي كانت يستهويها نفس الطريق الحرام.

بقى خالد وراء العاهرة حتى انفصلت عن زوجها وتزوجها في تحدٍ صارخ لكل تقاليد أهل القرية الأصيلة، وقبل مرور سنة كان الناس يتحدثون عن خالد تاجر المخدرات الذي أُلقيَ القبض عليه وبحوزته كرتونة من مخدر التامول خلال تهريبها من مدينة سفاجا بالبحر الأحمر إلى قنا، وحكمت المحكمة عليه بالسجن 10 سنوات بتهمة الاتجار في المخدرات.

النظام السابق!

خرج أغلب أصدقائي من رموز النظام السابق من سجونهم بعد مصالحات مع الدولة وعقد صفقات لإعادة الأموال المنهوبة، إلا أنني لا أزال حبيس الأفكار التي اعتنقتها عندما دعمت وروجت بصدق وإخلاص لسياسات النظام السابق في كتاباتي أثناء رئاستي لتحرير إحدى أكبر الصحف الحكومية لمدة 5 سنوات.

في بداية الهوجة، أو ما أطلقوا عليه بعد ذلك ثورة ضمن ثورات الربيع العربي، حمدت الله أنني لم أتورط في صفقة مالية، أو أحصل على رشاوى أو إكراميات مادية أو عينية، أو أتربح من منصبي خلال فترة عملي، إلا أنني سرعان ما تراجعت عن تلك الفكرة وتمنيت لو أنني فعلت كل الموبقات وكنزت الأموال كي أستند إليها في وقت الشدة كما فعل غيري من رموز النظام السابق.

تواريت داخل المؤسسة الصحفية على أحد المكاتب القديمة وسط أكوام الكتب التي كنت أعلم أنها ستكون أفضل الأصدقاء

وأوفاهم حين أبلغ سن المعاش، كنت أترقب نظرات زملائي الصحفيين وحتى العمال، فبعضهم يشفق على حالي بعد إصابتي بمرض «الربو» ودخولي فى نوبات كحة وسعال لا تنتهي، يظن من يشاهدني أن روحي حتمًا ستخرج بصحبة إحداها.

فُرِضَت علي عزلة إجبارية داخل مكتبي بدأت أستغلها في الاطلاع والتهام أكبر قدر من المعلومات عن طريق القراءة في خطة للهروب من واقعي المرير، إلى حين أن تسنح الفرصة لي كي أعود للحياة مرة أخرى للمشهد الإعلامي والصحفي والسياسي كما كنت، إلا أن العزلة طال أمدها لأكثر من عامين عرفت خلالها أن أغلب من كانوا يتقربون إلي هم أول من استلوا حناجرهم وسددوا الطعنات في ظهري.

كنت أرقب زملائي من الصحفيين ذوي القدرات المحدودة يتصدرون المشهد، فهذا ضيف في حلقة نقاشية بإحدى الفضائيات عن تطوير التعليم وهو يجهل القراءة والكتابة، بينما ذلك يشرح كيف تخرج الأحزاب للنور بأن تبنى نفسها بالشباب وهو لم يعرف مرة الفرق بين الحزب السياسي والنقابة المهنية.

وحدث أن أتت الانتخابات الرئاسية والبرلمانية بتيار الإسلام السياسي، وأصبح المشهد مقززًا وأنا الذي كنت لا أتوقع ذلك

مطلقًا، ومهاجمًا دائمًا وكاشفًا لخطط تلك التيارات التي كنت أعلم أنها مخلب القط للأجهزة الاستخباراتية الغربية أراها الآن تمتلك زمام الأمور وتعتلي السلطة.

حاول أحد المقربين التوسط لدى رئيس التحرير لأهم إصدارات المؤسسة الصحفية الكبرى التي ما زلت أتقاضى راتبي منها لأكتب مقالًا أسبوعيًا أو يوميًا إلا أنه رفض وقال في جملة نزلت على أذني كالصاعقة بأنني ممنوع بأمر الشعب الذي ثار على أمثالي من رموز النظام السابق، وبدأت تلك الكلمة تصيبني بالغثيان كلما سمعتها من أي أحد وفى أي سياق.

تركت نفسي وبدأت أتجرع الأيام بمرارتها وقسوتها، وخلال فترة لم تتعد العام بدأ الشعب ينقلب على تيار الخراب، وبدأت المواجهات بين أنصار النظام في الحكم والمعارضة، وعاد بعض من أمثالي ممن حسبوهم على النظام السابق إلى المشهد بعد أن بدأ الشعب يثور على ممارسات النظام الجديد الذي أصابه الجنون وبدأ ينفرد بالمؤسسات ويسيطر عليها.

وخلال أشهر كان الجيش قد تسلم السلطة حينها بدأت الحياة تبتسم لي من جديد بعد أن شعرت أن الناس ستعرف قيمة ما كتبته قبل ذلك عن تيار الإسلام السياسي وما يمكن أن يفعلوه لو

وصلوا إلى الحكم، وتوالت الشهور وجاء نظام جديد من رحم النظام الذي أنتمى إليه، ورأيت كثيرين ممن كنت أعرفهم فى أجهزة الدولة المختلفة يتصدرون المشهد ويتقلدون المناصب، ورأيت أنني عائد بقوة، وخلال إعادة بناء المؤسسات الصحفية والإعلامية توقعت اختياري ضمن القيادات الجديدة إلا أنني فوجئت باستبعاد اسمي من قِبل أحد أعضاء الهيئات التي ترشح القيادات بحجة أنني محسوب على النظام الأسبق.

بدرية .. وعليان!

ترك نفسه لرجرجة أتوبيس النقل العام وهو في طريقه إلى العمل بخطوط التليفونات في منطقة الشروق الجديدة على مشارف القاهرة، ورغم أحاديث زملاء العمل عن المواقف بينهم إلا أن ذهنه كان شاردًا بعيدًا إلى أقصى الصعيد في قريته التي تمنّى لو لم يولد بها ويجد نفسه في موقف الخزي والعار الذي سيلازمه وأبناءه وحتى أحفاده مدى الحياة.

كان «عليان» أخًا لثلاث بنات تزوجت كبراهن وبقيت الوسطى والصغيرة تعيشان مع خالتهما نظرًا لوفاة الأم والأب في سن مبكرة، وظل «عليان» مضربًا عن الزواج حتى بلغ 30 عامًا، وكان ذلك على غير العادة بين أبناء القرية ممن يتزوجون قبل حتى بلوغ العشرين، ورغم مهارته في الزراعة وثناء أصحاب الأراضي على اجتهاده، إلا أنه كان ينفر بشدة من كلمة «الكراو»، ومعناها العامل الأُجري باليومية في الزراعة، وكان يشعر بأنها

نوع من العبودية الحديثة لا تتناسب مع خبرته وقدراته العقلية أو حتى الجسدية.

عاش «عليان» ساخطًا على الحياة ورتابتها، حاقدًا على الأعيان من أصحاب الأراضي ممن ينادونه بالكراو وكأنهم يذلونه بفقره وعوزه رغم حاجتهم الشديدة لخدماته، وكان يتمرد كثيرًا على كل من يأتي إليه صباحًا يطالبه بالحضور إلى حصاد القمح أو رفع بعض أوراق الموز بعد تقليم الشجر قائلًا: «لا مش فاضي.. عندي شغل مع الحج على أبكساب»، وكان يقول تلك الإجابة لكل من يأتي إليه مع تغيير اسم صاحب الأرض لقطع الطريق عليهم جميعًا وكان يتملكه حينها شعور النشوة بعد أن ردهم خائبين.

تميَّز «عليان» بقدرته على تشغيل ماكينات الري بأنواعها، وإصلاح الأعطال الخفيفة في مواتير رش المبيدات، وكذلك التعامل مع الخيل المتمردة والحمير المنفرة وحتى الثور الهائج، كان «عليان» يملك قلبًا من حديد يواجه به ذلك الكائن الضخم ويروضه بالحبال بمساندة عدد من الرجال الأشداء، وأتذكَّر في إحدى المرات هرب عِجل كان مُخدرًا من تجار المواشي بعد

فجر يوم الجمعة قبل الذهاب به إلى السوق، وانطلق هائجًا في الزراعات، والبلد كلها تلهث وراءه ولم يستطع الإمساك به إلا «عليان» الذي نال ثناءً وتقديرًا بين أبناء القرية في ذلك اليوم.

كل ما كان مع «عليان» لم يكن دافعًا قويًا له لترك القرية والعمل بالقاهرة وذلك لأنه كان يعود إلى رشده بعد كل شطحة؛ فهو لا يستطيع السفر وترك الفتاتين مع خالتهم دون رعاية ومراقبة، إلا أن الحدث الجلل الذي وقع أجبره على ترك القرية بليل بعد أن كان يتوارى من الناس من سوء ما حدث له ولأسرته.

تهامس أهالى قرية الجزيرة بأن مباحث سوهاج ألقت القبض على شبكة منافية للآداب بإحدى شقق الدعارة فى البندر، كان ضمن رجالها 2 من شباب القرية على أبحسان ومحمد بن الحج بدري أبو الواعر، ولم يكن ذلك يهم القرية رغم أنها المرة الأولى التي تحدث فيها مثل تلك الواقعة، ولكن الذي وقع على الجميع كالصاعقة هو أن من بين العاهرات في تلك الشبكه «بدرية» بنت محمد أبوعليان.. نعم هي أخت عليان الوسطى التي انحرفت في طريق الشيطان منذ سنوات كانت ترتدي خلالها ثوب العفة والطهارة أمام الجميع حتى تكشفت الحقائق بتلك الواقعة.

كان أمام «عليان» خياران أحلاهما مر؛ إما أن يترك الجزيرة إلى الأبد وينسى كل شيء، أو ينهي حياة «بدرية» بصعقة من سلك الكهرباء كما أوعز له أصحابه وأقاربه، وحتى شيخ الخفراء الذي قال له «إن الحكومة تتساهل مع مثل تلك القضايا في الصعيد وقد استشرت أحدًا من حبايبي في المباحث وقاللي هو بس يخلّص ع البت وملهوش دعوة هنعمل المحضر قضاء وقدر، بس يبعد عن السكاكين والمطاوي والنار.. مش يديها طلقة ونقول قضاء وقدر»..

تكاد رأس عليان تنفجر من التفكير فهو الذي كان يلقى ثناءً وشكرًا من الناس تخيَّل الجميع يعايره بشقيقته، وحتى قبل أن يحدث فإنه يعلم سلوك أهل الجزيرة، فألسنتهم لا ترحم الضعيف الفقير إن سقط أو حدثت منه هفوة، بينما يغفرون للأقوياء والأعيان وأبنائهم كل ما يقترفونه.. وكان يعلم أن كل من سيتظاهر بمواساته والوقوف بجانبه يضمر له الإهانة والاحتقار في نفس اللحظة حتى أنه بدأ يسمع جيرانه الذين كانوا يخشونه منذ أيام وينبهون على أبنائهم بعدم رفع أصوات الراديو أو التلفزيون، يشغِّلون مكبرات الصوت خصيصًا له بأغانى العار من

الحكايات الشعبية، فكثيرًا ما خرقت أذنيه أغنية «شفيقة ومتولي» وكان كلما سمعها عند «غسل العار وكلام العزال.. متولي» تدمع عيناه ويجهش مع نهايتها بالبكاء.

لم يسأل «عليان» نفسه متى انحرفت أخته ولا كيف؟ وأين خالته منها؟ وكان كل ما يشغله هو كيف سيواجه الموقف؛ أيقتلها.. يقتل «بدرية» التي كانت شقيقته ويستعد لمواجهة الناس والسجن بشجاعة أم يستقل أول قطار للقاهرة كي تبتلعه المدينة الصاخبة وسط الملايين وينسى ما حدث عل أهل الجزيرة ينسونه بالمرة، وخلال أيام مكث خلالها بالمنزل ونقص وزنه أكثر من النصف قرر «عليان» التسلل إلى المدينة ليلًا، واستقل قطار الواحدة إلى القاهرة بعد أن اتصل بزميله «بسيوني» ابن محافظة كفر الشيخ الذي كان زميله في الجيش ودله على أحد أقاربه الذي يعمل في شركة مقاولات بالقاهرة لكي يستقبل «عليان» للعمل معه في الشركة.

أشعل «عليان» سيجارة بعد أن استقر على كرسي بجوار النافذة في القطار المميز، وبعد التحرك بلحظات أغلق الشباك متخفيًا من لسعة برد خفيفة رغم أنه كان يتصبب عرقًا، وحينها فقط شعر

«عليان» ببعض الارتياح، ورمق الزراعات والنخيل الموحشة ليلًا، وكأنه يقول لبدرية والجزيرة وكل أهالي سوهاج: «خلاص مش راجع تاني».. نام عليان في القطار حتى مشارف الجيزة ونزل في محطة مصر وسط زحام المسافرين وابتلعته القاهرة ولم تعرف الجزيرة عنه شيئًا حتى الآن.

سيدي .. رماح!

ربطني سيدي وظل يعذبني بالعطش طوال يومين جف فيهما لساني على غير العادة بعد أن كنت أنا الحر الطليق منذ ولدت في منزل أحد أعيان القرية، الذي كنت مخلصًا له في منزله، يأتمنني على أهله وأملاكه، وكنا نتبادل نفس الشعور بالنشوة والفخر، فأنا أتفاخر به أمام أقراني من الخدم، وهو كذلك حتى حدثت تلك المشاجرة، وتعجبت بعدها من تصرفات سيدي فبدلًا من تكريمي بعد معركة شرسة مع أحد خدم الجيران بسبب تطاوله عليه فعل عكس ما توقعت.

لم أشعر أن هناك أزمة من ذلك الجرح الذي في وجهي إلا بعد أن بدأ يتقيح بعد يومين، وفي اليوم الثالث منّ علي سيدي «رماح» بماجور من الفخار، فيه ماء أصفر ذو طعم غريب لم أكن أستسيغه لكن تعاملت معه بنهم وشربت الدورق بأكمله؛ لأنني كنت على ثقة أنه تنازل عن جزء من عقابى وبدأ قلبه يرق، وكنت في حاجة إلى ماء إلا أنه أكد على ابنه «علي» بألا يحضر أحد لي ماء إلا بأوامره.

تركت نفسي لسيدي، وبعد 15 يومًا تماثلت للشفاء وعرفت بعدها بأن سيدي كان يقدم لي الدواء في الماء ولم يكن يؤذيني بتلك التصرفات، حين أتى الطبيب البيطري للمرور على ماشية الحقل في كشف دوري يقوم به الطبيب الذي وخزني بإبرة عرفت أنها ضمن علاج جروحي.

كان يعاملني سيدي كأحد أفراد العائلة، بل أكثر من بعضهم تميزًا، وكان دائمًا ما يعاير نجله الأصغر «أدهم» بأن «الوحش»، يقصدني أنا كلبه الوفي، بأنني أفضل منه ويعدد أعمالي ويشيد بدوري قائلًا: «طول الليل نايمين على حسه.. مفيش حرامي يقدر يقرب للبيت ولا للبهايم طول ما هو صاحي.. ولو جبت 20 حارس مش هيعملوا اللي بيعمله وحش».

كانت كلماته ولمساته ورعايته لي ودفاعه عني دافعًا كبيرًا لذلك الوفاء والإخلاص مني له حتى الموت، ولكن رغم حب الجميع لي بسبب حب سيدي إلا أن «أدهم» كان يستغل غياب سيدي ويعاملني بقسوة ويطردني من أماكن نومي بالنهار، وحتى حين يجلب الطعام فإنه يتلفظ بكلمات سيئة ضدي وسيدي، وكان يأمن جانبي لأنني لن أبوح لأبيه بأفعاله مهمها بدَرَ منه، إلا أن سيدي كان يعلم أنه لم يكن بيني وبين سيدي الصغير عمَار،

ورغم المحاولات المختلفة لكي يحن قلبه علي إلا أنني لم أرَ من «أدهم» سوى الجحود والعنف والكراهية.

وبقيت هكذا لسنوات حتى كبر سيدي وكبر أبناؤه وبدأت الخلافات تدب بين أفراد العائلة، ورأيت الحزن كثيرًا في عيون سيدي بسبب تلك الخلافات وأشفقت عليه وتمنيت أن يكون مثلي لا عائلة له لكي لا يحزن، ورأيته منكسرًا بسبب ما يفعله نجله الأصغر «أدهم» الذي كان شابًا فاشلًا لا يتورع عن العودة للمنزل مخمورًا قرب الفجر، يكيل الشتائم للجميع وأنال ركلات منه في وجهي وبطني، وأتمالك نفسي ولا أبدي رد فعل إلا بتأوه مكتوم كرامة لسيدي الكبير.

وذات ليلة ضاق سيدي بأفعاله وحاول نصحه بغضب إلا أن «أدهم» تطاول على أبيه محاولا التعدي عليه بيده، وهنا صفعه سيدي على وجهه وأشهر عصاه مما دفع الابن المتمرد إلى إشهار سلاحه الناري في وجه أبيه مهددًا إياه بإطلاق النار، كنت أراقب المشهد على بُعد خطوات بنباح ازدادت حدته برؤيتي للسلاح مسددًا لوجه سيدي، وهنا قفزت على الابن وهاجمته بنهشة خفيفة في يده فما كان منه إلا أن بدّل السلاح في اليد الأخرى وأطلق النار.

سقطتُ بين يدي سيدي «رمـاح» ورغم ذلك كنت سعيدًا بهروب نجله المتمرد بعد أن صرخ سيدي بهيستيرية قائلًا: «قتلتْ صاحبي.. قتلته يا فاسد» والله أجدع وأرجل منك.. مشوفش وشك تاني في بيتي».. شعرت حينها بقلب سيدي ينبض بسرعة وجسده مرتفع الحرارة وضمني بقوة وشعرت بكل دمعة تسقط عليّ ..كانت دمائي تتجدد.

شيوخ القرية ..!

كانوا فريقًا واحدًا.. لم يتجاوز عددهم أصابع الكفين.. تعاهدوا فيما بينهم، دون أي أوراق أو مكاتبات على أن تكون قراءة الفاتحة نسمة عطرة لجميع من في المقابر يوميًا عقب صلاة الفجر..كنت أتعجب كثيرًا من هؤلاء العواجيز كيف يتحملون رصاص الشتاء قارس البرودة.. فهذا يتوضأ ماء يكاد يتجمد، وذاك يأبى أن يمسح الماء من على وجهه ويديه حتى أصابها التشقق.. ويلتزمون جميعًا بحضور صلاة الفجر في مسجد القرية.. وأخجل أنا الشاب الذي لولا سهري حتى الصباح للمذاكرة بسبب الامتحانات لما حضرت معهم تلك الصلاة .

جمعهم صفاء النفس وطيبة القلب ونقاء السريرة، حتى تعاهدوا جميعًا على قراءة الفاتحة لكل من يرحل منهم.. أكثر من 17 سنة مرت على تلك الأيام.. وما زلت أتذكَّر ١٥ دقيقة وأيديهم مرفوعة إلى السماء عقب كل صلاة، وكأنهم تيقنوا أن الله هبط إلى الأرض وتجلَّى في قلوبهم يوزع عليهم الرحمة والمغفرة ..

لم يبخلوا بالدعاء لأحد، وكلما تذكروا مريضًا أو ذا حاجة من أهل القرية لمسوه بالبركة، وكان له نصيب من الخير، حتى انتهوا جميعًا إلى قبورهم وتساقطوا كما تتساقط أوراق شجرة الخريف تباعًا .

بوفاة آخرهم بدأت اللعنات تحل على القرية، فقد حدث أن انتشرت الذئاب في الزراعات وهاجمت الأغنام والماعز ليلًا، وكانت تختبئ في زراعات الموز والذرة بالنهار، وتظهر لمن يروون الأرض من المزارعين في حقولهم، كانت الذئاب تمتلك جرأة غير عادية في الوقت الذي هاجم النمل منازل الأهالي بضراوة، وكذلك الدبابير التي عششت في نخيل البلح وأجهضت محصول عام، وغيرها من وقائع أرجعها الناس إلى وفاة حرّاس القرية وبركتها، وذلك بعد أن انقطع الناس عن صلاة الفجر وأصبح المسجد خاويًا في ذلك الوقت مغلقًا على غير العادة.

«عم شاهين»..!

تعجبنا كثيرًا من قدرته على صناعة القفشات وحكاياته ونوادره عن فترة صباه وشبابه، ونكاد لا نصدق كل ما يرويه من كثرة وهول ما ذكر لنا عن مغامراته وهو يركب النخيل ليلًا؛ لأنه اشتهى أكل البلح الرطب في ليلة ظلماء إذا أخرج يده فيها لم يكد يراها، أو حكايات الثعبان الذي قتله رغم أنه بعرض الغيط الذي يملكه، أو ذلك الذئب الذي استطاع أن يربيه لسنوات وأطلقه في النهاية لأنه هاجم الغنم على حين غفلة بعد أن ظل يحرسها لسنوات..

كنا -أنا وأبناء عمي- نحب عم «شاهين» ونحن صغار في قريتنا بصعيد مصر بسبب الحكي والقصص المشوقة والممتعة التي كانت تلهب مشاعرنا وتشد حواسنا، لأننا في تلك الفترة -التسعينات- لا نملك إلا خيالًا نستكمل به ذلك الفيلم السينمائي الذي ألَّفه وأخرجه لنا الرجل السبعيني، الذي كنا نستمتع بحكاياته طوال فترة الليل أثناء ري الأرض.

كان صاحبنا السبعيني يتحايل على الدنيا بالضحك، يقتل الحزن بالحكايات، يجد متعة بيننا -نحن الصغار- في تحقيق ذاته وتسيده وامتلاكه زمام الحديث، فقد عاش حزينًا فقيرًا وحيدًا إلا من زوجته وابنه «راضي» الذي سماه بذلك تضرعًا لله بأنه ما زال راضيًا بالبلاء ويطمع في الكرم الإلهي حتى وهو على مشارف الموت.

بدأت مأساة عم شاهين حينما تزوج بفتاة من القرية في عنفوان شبابه، ورغم مرور سنوات فلم ينجب منها، وحين كان الأهل والجيران من أهل القرية يطالبونه بالزواج عليها يرفض ويقول: «يمكن مرتي مش أرض بور.. وأنا اللي عندي التقاوي متأخرة»..

وتحت ضغط العمر وكلام الناس رضخ عم «شاهين» وتزوج من أخرى وثالثة ومرت السنوات وتركهن جميعًا، ولكنه تحت الضغوط ختم بالرابعة، امرأة ثلاثينية مُطلّقة، وهو في الستين من عمره، وكانت الرحمة من الله على يديها.. أنجبت له «راضي» الذي أمسك بثوبه أخيرًا وهو ذاهب إلى السوق وحقق حلمه بالخلفة.

ذكر أهل القرية بأن الرجل لم يرَ وجه الحياة منذ أن كان صبيًا في العشرينات، حيث كان ضمن عصابة من اللصوص يسرقون

الزراعات والمواشي في البلاد المجاورة، فقد كان لكل عصابة عدة قرى تنشط بها، وفي إحدى المرات خرج شاهين الشاب مع زملائه، وخلال الهرب بأجولة الغلال كشفهم صاحب المنزل، وصرخت زوجته، وطاردهم الناس، وحاول شاهين وزملاؤه الهرب، وقفز شاهين في نهر النيل محاولًا اللحاق بزملائه في القارب الصغير إلا أنه تأخر وقفز في الماء وبدأ الأهالى في إطلاق النار عليه، وحينها أصيب بالهلع لتبدأ تأثيرات الخضة لديه ويفقد القدرة على الإنجاب.

ورغم حكايات أهل القرية عن استحالة قدرة الرجل على الإنجاب إلا أن القدر كانت له كلمات أخرى بقدوم «راضي»، الذي ملأ الدنيا على والديه، لينضم إلى أبناء عمومته في مهنة الزراعة ممن كانوا يخططون للحصول على ميراث عمهم «شاهين» من الأرض بعد وفاته لأنه لم ينجب.

سمعت منذ أيام عن وفاة الرجل الحكَّاء، وعرفت من الناس أن القول الذائع قد تحقق بأن «من شابه أباه فما ظلم»، فقد ذهب نجله «راضي» للعمل بالمملكة العربية السعودية بصحبة أبناء أخواله ممن يعملون لدى أحد أمراء الخليج ليبدأ «راضي» كتابة فصول أخرى من حكايات والده، ولكن هذه المرة عن تلك الأميرة التي

أحبته وأوقعها في غرامه، أو عن تلك السيارة التي تمشي في البحر والبر والجو والمرصعة بالألماس التي يقودها بنفسه، أو حكايته عن رحلة الصيد التي استطاع خلالها إنقاذ حياة الأمير من بين فك الأسد في صحراء المملكة.

كانت عذراء!

انتفض الجهاز اللاسلكي برنة مفاجئة قبل انطلاق مدفع الإمساك بدقائق إيذانا ببدء يوم جديد من الشهر الكريم، ظننتُ أنه بلاغ بحريق في أحد منازل الأهالي كعادة القرى بصعيد مصر، حيث تنشب الحرائق غالبًا في وقت إعداد الطعام، وجاء الرد مباغتًا ومقتضبًا: «توجيه من السيد المدير بالتوجه ناحية بلاغ جثة في عزبة درويش».. التقطتُ قلمًا بجواري سريعًا ودوّنت معلومات البلاغ «تمام يا فندم.. اسم المبلِّغ.. محمد علي عثمان.. القتيلة ابنته.. والمقيمة في عزبة درويش».. تحركتُ على رأس مجموعة من رجال المباحث إلى العزبة وأخطرت النيابة العامة للمعاينة..

كانت الدلالات الأولى للجريمة أمامي تدل على أن مرتكب الواقعة هو زوجها، بعد أن اتهمه والدها «المبلِّغ» بقتلها انتقامًا منها لخلافات سابقة عن الحمل والإنجاب، والتي كان آخرها مشاجرة نشبت بينهما بعد أسبوع من حلول شهر رمضان، تركت

ابنته خلالها المنزل وعادت بعدها مرغمة إلى زوجها بعد ضغوط من أسرتها.

جثة بها عدة طعنات، بدون رأس، مُسجاة على السرير، والدماء متناثرة في كل مكان بحجرة النوم، وبعثرة في محتويات المطبخ، وتكسير لعدد من أكواب الزجاج على الأرض، وسلامة النوافذ والأبواب، كلها مشاهد تم رصدها خلال المعاينة ولكن رغم كل ما حدث لم يكن هناك دافع واحد لفصل الرأس عن الجسد بعد القتل.

بدأت رحلة البحث عن القاتل والرأس فور انتهاء النيابة من المعاينة بعد ساعتين من البلاغ، وعندها كان ضوء شمس الصباح قد أيقظ الطير والبشر لتدب الحياة في القرية من جديد، حيث دلتنا الاتصالات مع المصادر السرية من المرشدين إلى أن الزوج استقل قاربًا صغيرًا إلى جزيرة وسط النيل تشبه الأحراش بسبب نمو نبات الغاب بها بكثافة، وكان في يده جوال من البلاستيك، وبعد أن نسقنا مع رجال شرطة المسطحات المائية باغتنا المتهم وهو نائم بين النباتات حاملًا بين ذراعيه رأس زوجته داخل الجوال ملفوفًا بقطعة من القماش المدمم في مشهد غريب أشبه بحمل طفل للعبته أثناء نومه.

ارتعدت فرائص الرجل الذي بدأ يحرك شيئًا ثقيلًا بداخلي نحّيته جانبًا فورًا قبل أن أقع في الفخ وأتعاطف معه، بدا خائفًا أمامي وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة التقطت منها: «استحملت كتير يا باشا « و»أنا كانت روحي فيها».

في عالم الإجرام كل شيء وارد، فيمكن للمتهم ادّعاء الجنون والاهتزاز النفسي كما يحلو له، ولكن في النهاية تفصل الجهات المختلفة في مصيره، وصاحبنا حاول ادّعاء الجنون أو الاهتزاز بتلك الكلمات ولكنها لم تنطل علينا، لا أنا ولا زملائي الضباط، إلا أن هناك شيئًا بداخلي دفعني للإحساس بشفقة تجاه الرجل.

أمسكنا بالماء أثناء التحقيق مع المتهم؛ حيث لم نجد أداة للجريمة، ولم يعترف هو بارتكابها رغم ضبط الرأس المقطوع بين ذراعيه في الأحراش، وكان كل ما يفعله هو أن يجهش بالبكاء.. ولم تفلح أدوات المناقشة والتحقيق من ضغوط نفسية أو بدنية عليه لأنه كان محطم النفس مرضوض الجسد شارد الفكر هائمًا أمامنا طوال الوقت.

انتهينا من كتابة المحضر بأخذ أقول الأب والأم والجيران وكل من له علاقة بالمدرس المتهم وزوجته المغدورة، التي أجمع

أكثرهم على وصفها بأجمل فتيات القرية، والتي فاز بزواجها وعاشت معه 8 سنوات كانوا يشفقون عليها مما تلاقيه على يد زوجها من ضرب وإهانة بسبب الخلافات التي كانت تنشب بينهما بسبب الإنجاب، والتي كانوا يرجعونها دائمًا إلى عيون الناس وحقدهم على الزوجين.

أرسلنا المحضر إلى النيابة التي أمرت بحبس الزوج 4 أيام على ذمة التحقيق، وعرضه على طبيب نفسي للكشف على قواه العقلية، مع التصريح بدفن الجثة وانتظار تقرير الطب الشرعي بشأنها، والذي لن يخرج إلا بعد أيام من دفن الجثة.

بعد مرور 3 أيام على الواقعة، وقبل تجديد حبس المتهم ورَدَ إلينا في وحدة المباحث تقرير الطب الشرعى للجثة، الذي كان في 4 ورقات بها أوصاف وعدد الطعنات وطريقة ذبح الجثة، وكذلك وصف السن والحالة الصحية وسبب الوفاة طبيًا، وكل تفصيلة في جسد القتيلة، التي كان من بينها مفاجأة من العيار الثقيل، وهي أن أجمل نساء القرية، التي عاشت مع زوجها أكثر من 8 سنوات كانت عذراء.

لعنة البخل!

كان الناس ينفرون من رائحته ومنظره بعد أن تقيحت قدماه وبدأت حشرات الأرض تنخر في جسده، وبعد أن يئس صاوي الحلاق من معالجته، لم يكن أمامه سوى أن يكوي القدمين بالنار وقد كان له ذلك في ظل نوبة صراخ من الشيخ «جحمان» الذي كان يتميز بين الناس بأنه أبخل أهل القرية، حيث كان قد أقسم يمينًا بالطلاق من زوجته ألا يتناول اللحم أو الطير بل لا يأكل البيض ولا أي شيء مما يخرج من الأرض؛ من بصلها وقثائها، وحتى فومها وعدسها أو بصلها، وفشلت كل المحاولات معه في إثنائه عما في عقله الذي شعر الجميع أنه خف أو ضرب من قلة الغذاء.

كان الشيخ جحمان أحد الناس النادرة في المعاملة، فقد كان القرقوش والملح هو الوجبة الثابتة ليلًا ونهارًا حتى ذبلت أطرافه وضعف بصره وشحب وجهه ومال لصفرة المرضى، ورغم ذلك لم يغير من عادته التي كانت مسار نفور واستهجان

من جميع أهل القرية، إلا قلة قليلة من عبدة الجنيه ممن كانوا يحسدونه بسبب نصاحته وحرصه على شراء الأراضي والمنازل، حتى أنه حين مات ترك 25 فدانًا، وهي مساحة لم تكن بالقليلة في قريتنا، و 4 كروم من النخيل، في كل كرم 40 نخلة، و 3 منازل كبيرة مساحة كل منها 3 قراريط، هذا بخلاف التنافس بين أحفاده على ما بحوزته داخل المنزل من عملات معدنية وورقية من فئة الجنيهات والعشرة جنيهات، والتي كان يضعها في أكياس بلاستيكية ويدفنها في الجدار ويضع عليها الطين، وكأنه ورث عن أجداده الفراعين الأوائل حفظ الأموال والممتلكات استعدادًا للحياة الأبدية في الآخرة.

رغم كل ما تركه الجحمان من أطيان وأموال فإن حكاياته تظل الأغرب والأكثر تداولًا بين الناس، حيث لا يوجد أحد لا يعرف حكاية عم بدران الذي ذهب للعمل لديه في المنزل وقدّم له قطعة خبز جافة «قرقوشه» وبجوارها الملح، وحينما بدأ عم بدران في وضع الماء عليها ليأكلها وهو يكتم غيظه إذ بعقرب صغيرة تخرج منها رافعة ذنبها زاحفة على يده مما أصابه بالذعر وترك منزل الرجل وفرَّ هاربًا وهو يكيل له اللعنات.

التصق الاسم بالعائلة وأصبحت رغم الأطيان والأموال «بيت الجحمان» وتداول الناس حكايات جدهم مع البخل بتندّر وفكاهة، ورغم ركوب أحد الأحفاد الخيل إلا أنه يظل معدمًا من الخيرات، فللزرع محصول كثير لا يكفي حاجتهم، ولبن الماشية وفير لا يتذوقونه، ويبيعون كل ما يخرج من سمن وجبن وغيره في الأسواق دون الإمساك بقرش واحد في نهاية المطاف، وكأن المال أصابته لعنة البخل مما اقترفت يدا جدهم الأكبر، وهو ما كان يشيعه أهل القرية طوال السنوات الماضية وحتى الآن.

مُسجَّل خطر!

حدث ذلك في إحدى ليالي الشتاء في النصف الأخير من شهر كيهك أو «كياح» كما يسميه الفلاحون في الصعيد، في طقس قارس البرودة، حيث أطلق الخفراء الأعيرة النارية في الهواء من بنادقهم الخرطوش ذات الفتحتين «بروحين» أثناء مطاردتهم لذلك اللص الذي أوقعه حظه العاثر بين أيديهم قبل أن يتمكن من الهرب بعد أن تجرأ وتسلق سور جنينة العمدة «مجاهد».

لم يكن «عواد» شابًا صالحًا، بل نشأ شيطانًا متمردًا منذ الصغر، وظهرت علامات الإجرام على وجهه وفي تصرفاته منذ نعومة أظافره، فقد تعددت الشكاوى من أمهات أقرانه بسبب شقاوته في اللعب خلال زيارتهن السريعة لمنزله المتهالك، الذي يقيم فيه بصحبة والدته البائسة التي جار عليها الزمن بعد موت زوجها «سعد الخواص»، وكانت تتوكأ عليه رغم كبر سنه؛ لأنه كان يصنع المقاطف والقفاف وجميع لوازم الحقل من حمالات السباخ والبرادع للحمير، والحبال الليف بأنواعها لأهل القرية من خوص

النخيل وليفه وقطع من الأقمشة البالية، وكان الإنتاج يكفيه وأسرته عن سؤال الناس.

رفض «عواد» العمل مع والده فى مهنته، وأطلق العنان لخياله بأن أصبح يومًا من أعيان القرية مثل الشيخ «سلاموني» شيخ الناحية، أو العمدة «مجاهد» الذي يسيطر على نصف أراضي البلد، ولديه حدائق وأموال، ولا يركب سوى الخيل، ويأكل رغيف القمح ولا يعرف طريقًا للبتاو أو العيش القيضي المصنوع من الذرة الرديئة من بقايا دراسة الغلال في الحقول، وهي التي كان يتحصل عليها والده كل عام في موسم الحصاد مقابل تقديم الخدمات للأعيان من أصحاب الأطيان، حيث لم يكن فقط يصنع لهم لوازم العمل بالحقل، بل كان أيضًا يطبب المواشي، فتلك الجاموسة منتفخة البطن ومكتومة بعد أن أكلت كميات من البلح الناشف «الخوش» فينصح القفّاص بجرعة من الشيح المغلي أو الكمون المطحون، وذاك حمار جرح من صاحبه فيقوم بكيه بالنار حتى يشفى.. وهكذا..

بدأ «عواد» طريق الحرام بسرقة الجميز من شجرة الشيخ «حسان» التي كانت تتدلى أفرعها على النيل بجوار مقام الشيخ أو ولي القرية وحارسها من الشرق كما كانوا يطلقون عليه، ليبدأ

فمه تذوُّق الحرام والاستمتاع به حتى اشتهر بتسلقه للحوائط والأسوار لاقتحام أعتى الحدائق والفوز بالفاكهة له ولأقرانه من الأطفال، حيث لم يبلغ «عواد» الثامنة عشرة بعد، ولم يكن عواد من هواة التخريب حيث كان حريصًا على ألا يفسد زرعًا يسرق منه، أويحرق جرنًا، بل كان يسرق لسد رمق جوعه وكانت له فلسفته الخاصة بتبرير السرقة بالقول إن الأرض والزروع ملك الله ولا سلطان للبشر عليها، وإنه لم يرتكب ذنبًا بتلك السرقة، بل كان يأكل وباقي الفقراء، وإنه لم يسرق يومًا من فقير وإنما كان يختار دائمًا أملاك الأعيان حتى باتت السرقة مهنته التي كان يهواها بالنهار حتى مارسها بشغف بالليل.

حاول «عواد» الإفلات من الخفراء بعد أن أمسكوا به عقب إصابته في ساقه برش خرطوش، وحاول معهم قائلًا: «سيبني يا عم بدران.. وحياة ولادك.. العمدة مش هيرحمني».. فرد الخفير قائلًا: «ومين يرحمنا إحنا يا ولدي.. لازم نسلمك ليه وهو يتصرف.. يا يرحمك يا مع السلامة»، أدرك حينها «عواد» أنه وقع في يد من لا يرحم وقد كان بأن أمر العمدة بتجريده من ملابسه إلا من قطعة بيضاء أسفل بطنه، وبدأت وصلة ضرب من الخفراء وسط جمع من أهالي القرية الذين صمت بعضهم وظل

واقفًا يترقب المشهد خوفًا من بطش العمدة وأعوانه من الخفراء بينما هاص الباقون تشفّيًا في الفتى قائلين: «عيل قليل رباية ود لبيبة الحفافة»، في إشارة إلى مهنة أم عواد لبيبة التي كانت تمتهن الحفافة، وهي تزيين نساء القرية، وهي من المهن المنبوذة بين أهل القرية.

لم يكتفِ العمدة بزفة بلدي للفتى اللص، بل أمر بتلوينه بالجير ليصبح وجهه وجسده مدهونًا بالجير الأبيض لكي يكوى جلده ويزيد من تجريسه بين الناس، وكانت حكاية عواد الوليمة الدسمة لجلسات السمر بين الفلاحين في قرية كفر الجبل والقرى المجاورة لها لتموت الحكاية بنسيان الناس لها بترحيل «عواد» للمركز والحكم عليه بالسجن 5 سنوات، بعد أن تهادى العمدة بمجاملة من مأمور المركز بتستيف محضر متكامل لعواد، كان من بين اتهاماته التعدي على الممتلكات الخاصة والسرقة وإتلاف الزراعات وحيازة أسلحة نارية.

مرت السنوات الخمس على «عواد» متنقلًا بين سجون مصر، فقد تم ترحيله إلى سجن طرة بعد الحكم عليه وقضاء السنة الأولى في سجن قنا العمومي، مما ضاعف من عذاب الأم ولم تستطع زيارته خلال الأربع سنوات الأخيرة، وما كان يطمئنها أنها كانت

تتلقى أخباره من الصول حامد الذي كان يعمل بالمركز حينها، وذات مرة أثلج الرجل صدر «لبيبة» بقوله: «ولدك طالع في العيد الجاي»، في إشارة إلى عيد الأضحى.. وبالفعل خرج عواد قبل ليلة العيد وقبل أن يلمس جسده تراب المنزل قال لأمه: «هوصل مشوار لحد دشنا وجاي يا أمه».. حاولت الأم إثناءه عن المشوار إلا أنها رضخت تحت إصراره خاصة أن الهواجس بدأت تجول بعقلها بأن ابن بطنها سينتقم لا محالة من العمدة.

تسلّم «عواد» بندقية آلية روسي 56 من نوع الكلاشنكوف ووراءها 3 خزنات محشوة بالطلقات بعد أن دله صديقه ماهر الدشناوي في السجن على أشهر تجار الأسلحة بقنا.

لمعت عينا «عواد» وبدأ في وضع خطة الانتقام، ولم يجد فرصة أفضل من صبيحة يوم العيد لتنفيذها، حيث ينتهى العمدة من توزيع اللحوم بعد الصلاة وينسحب الخفراء إلى أسرهم بعد حصولهم على اللحوم التي تسيطر على خيالاتهم طوال العام.. وقد تحقق لعواد ما أراد حيث كمن للعمدة خلف الحظيرة، وبدأ في التسلل داخل السور حتى وصل لصدر المنزل ووجد العمدة يتناول طعامه من لحوم الذبائح، وفجأة أطلق عواد النيران قائلًا: «كرامتي وشرفي رجعلي يا عمدة» .. ودوت طلقات الدفعة الثانية

في الهواء بعد أن أفرغ الفتى الخزنة الأولى بعدد 30 طلقة في صدر العمدة لتختلط الدماء بالطعام، ويلتقي لحم الرجل بلحم الذبائح، وتبدأ في القرية قصص أخرى عن «عواد» الذي لاذ بالفرار إلى المنطقة الجبلية المتخامة للقرية حاملًا سلاحه ليصنع لنفسه أسطورة ما زال أهالي القرية يقصون تفاصيلها على الصغار، ويصبح عواد لدى الناس «خُط الصعيد» بينما سجلته الحكومة في دفاترها «مُسجَّل خطر».

مقام الشيخ «عمار»!

أطلق العنان لخياله وظل يحلم بـ»نفيسة» التي كانت تتمتع بجمالٍ طاغٍ وحُسن بديع، فقد كان وجهها القمر في تمامه، ملفوفة القوام بخصر رفيع، تتراقص وتميل بدلال في مشيتها، بيضاء بحمرة خفيفة، متوردة الوجه، وزادها جمالًا طابع الحسن وغمازتان تظهران كلما تبسمت بشفتين ورديتين تكشفان عن أسنان مغرية كلما تحدثت، ولسان كالمبرد إذا ما تحدثت انتقدت كل ما يقابلها بشكل لاذع مما جعل الجميع يتجنبها إلا هو، فقد كانت تحنو عليه وتشفق، لأنها تراه لا حول له ولا قوة أمام جبروت الجميع.

تبنَّى الحاج حسين «عمار» منذ ولادته لأم كانت تعمل خادمة لزوجته الحاجة «وحيدة» ماتت حين بلغ السادسة، وكان أبوه أحد أنفار الأرض لدى «الحاج حسين»، لم يمهله القدر لرؤية نجله والتهمته ماكينة الري بعد أن التف ثوبه حولها وقتلته، ومنذ ذلك الوقت صار «عمار» بمثابة أحد أفراد عائلة «الحج حسين» التي تتكون من نجله «بدر» وابنته «نفيسة» وزوجته الحاجة «وحيدة».

كان عمار يقوم بأغلب الأعمال التي يتعامل فيها مباشرة مع أهل المنزل، فهو المؤتمن ولا أحد سواه من الأنفار على الحريم، حيث يقوم بطحن الغلال وسحب المواشي وأحيانًا حلبها، كما أنه يرفع كل ثقيل لا تحتمل الحاجة «وحيدة» أو «نفيسة» على حمله، مثل جرار الجبن والعسل وكميات الدقيق للخبيز، وكان ذلك يسبب له خجلًا كبيرًا لأنه لا يستطيع رفض أوامر الحاج حسين فيما يعايره أقرانه من هم في عمر الثامنة عشرة بأنه مثل الحريم لا يقوى على أعمال الحقل ولذلك يكلفه الحاج بالأعمال المنزلية، إلا أنه كان يصبّر نفسه بقربه من «نفيسة» أجمل بنات القرية بل والقرى المجاورة والتي يتمنى منها أبناء الأعيان مجرد نظرة.

مرت الأيام وازداد ولع «عمار» بـ«نفيسة»،كانت نظراته إليها تفضحه رغم محاولاته المستميتة لمنع نفسه عن تلك الشطحات القاتلة والتي يعرف أن نهايتها محتومة، وقد تصل إلى طرده أو قتله بعيار من بندقية سيد البيت الصغير «بدر» الذي كان حاد الطباع متقلب المزاج مدللًا يقضي حياته بين الصيد بالخرطوش وركوب الخيل وتربية الكلاب الشرسة.

حاول «عمار» الاعتراف بحبه لنفيسة إلا أن لسانه كان ينعقد في كل مرة ويتلعثم فيغير الحديث، وبمرور الوقت أدرك عمار

أن ما تفعله معه لا يعتبر سوى عطف وشفقة على شخص تمتلك زمام حياته، وكان دائمًا يتمرد على نفسه ويهيم ليلًا في الزراعات ويذهب إلى النيل يناجي القمر ويبكي بحُرقة لا مثيل لها قائلًا: «ليه يا رب خلقتني غلبان.. ياريتني كنت غني وعندي أطيان كنت اتجوزت نفيسة».. كان يناجي السماء حينما تنهره نفسه وتوبخه وتذكِّره بأنه مجرد خادم ليس إلا.

لاحظت نفيسة شحوب وجهه وضعف جسده وقالت له: «مالك يا عمار؟ شكلك تعبان اليومين دول؟» فردَّ بتوتر: لا لا.. أنا كويس.. بس يمكن أنا كنت بسهر وبصحى بدري شوية مع الحاج حسين» ورفض أن يبوح لها بما يحمله من مشاعر متقدة وتهرّب برفع جرة المش قائلًا: «هطلّعها للسطح» فضحكت نفيسة في دلال: «تطلّع إيه ده إنت لسه منزلها من فوق البيت.. إنت شكلك فعلًا تعبان يا عمار.. روح ناملك شوية» وضحكت فتفجّر وجهها بحسن ودلال دوّخت عمار بسكرة بعد أن التقطت أنفه وهو مغادر رائحتها الذكية.

دارت الأفكار في عقله متقلبة فتارة يقول لنفسه: «أنا أحضنها وإحنا في شونة التبن وأشوفها هتعمل إيه وخلاص ومهما يحصل مش هيحصلي أكتر من اللي أنا فيه».. وتارة أخرى يقول: «لا

لا.. أنا أفاتحها وأقولها إنى بحبها واللي هي شايفاه وانزل أحب على رجليها يمكن تحن عليا وتحبني وتتجوزني لما تجبر أبوها على كده».. تتجوزك إزاي وأنت عبد خادم.. طب مع العمدة حساني جوَّز بنته فريدة الجميلة من 30 سنة لخادمه بطال رغم كل ما بينهما من فروق، وذلك لأنه أنقذ حياته وحياة أبنائه قبل أن يغرقوا جميعًا في النيل.. ولم لا وأنا المخلِص للحاج حسين طول حياتي.

كان يصارع نفسه كل ليلة ويستسلم لها بعد أن تنهكه بحججها وينام ليصحو مثل الذي خرج لتوه من قبر، وظل على هذه الحالة حتى وقع على رأسه الخبر الصاعقة بعد أشهر قليلة بأن الأستاذ خيرات ابن شيخ البلد وابن خال «نفيسة» تقدَّم لخطبتها، وأن العريس سيأتي الخميس القادم للتقدم رسميًا لقراءة الفاتحة، حينها لم يقو على السير وبالكاد حملته قدماه إلى غرفته بجوار حظيرة المواشي وألقى بجسده على الحصيرة وراح في سبات عميق وهو يهذي بكلمات لم يكن مسموعًا منها سوى كلمة «نفيسة»، وبعد أيام قليلة أصيب عمار بآلام شديدة في قدميه لم يقوَ بسببها على المشي وطلب من الحاج حسين أنه يحمله الأنفار إلى مقام الشيخ «بسطاوي» حيث زهد «عمار» الدنيا

وبدأ في معالجة نفوس الناس وتطبيب جراحهم وأصبح نقيب الشيخ «بسطاوي» حتى مات بجوار المقام ليبدأ الأهالي تداول حكايات كراماته وأقاموا له خلوة مُلحقة بالمقام الكبير أطلقوا عليها مقام «الشيخ عمار»..

وفاء الرجال!

تعجَّب الناس كثيرًا، وأنا من بينهم، من تلك الحالة التي بدا عليها الرجل السبعيني «عم علي»، الذي كان ينتحب ويبكي مثل طفل فقد أمه في مولد سيدي عبد الرحيم القنائي، أثناء إعداد زوجته للدفن بعد وفاتها، بينما أُصيب أبناؤه بالضيق لحال والدهم الذي كان يخرج من فمه ما لا تقوى الأعين على رؤيته أثناء بكائه وكلماته الحزينة الهستيرية على رفيقة الدرب.

كانت علاقة علي بزوجته طيبة طوال حياتها، وكانت قريتنا تضرب المثل بطيبته معها وأنه لم يقل لها أف يومًا من الأيام طوال أكثر من 45 عامًا عاشاها معًا، إلا أن الناس كانوا يقللون من رجولته أمامهم بأنه «لازم يشاور مرته على كل حاجة»، وحتى حين يظهر مجلس للعزاء ويريدون «عم علي» للذهاب معهم يقولون له «كلّم الجماعة» وينفجرون من الضحك، وكان هو يضحك ويقول: أنا ومرتي مريحين بعض.

شعرت بالشفقة تجاه الرجل حين تكالب الناس عليه بألسنتهم، ولاكوا تصرفاته وحزنه الشديد على زوجته، وكدت أنجرف مع الجموع إلا أنني تراجعت بعد أن شعرت بخزي وعار في نفسي نظرًا لكبر سن الرجل وطيبته مع الجميع بعيدًا عن موقفه من زوجته، إلا أن الناس لم يتركوا ذلك الموقف طوال أسبوعين أنستهم بعدها حكايات أخرى عن شاب حاول التحرش بحلبية ممن يبيعون القماش في المنازل لنساء القرية.

ومرت السنوات ومات «عم علي» بعد شهور من رحيل زوجته وقال الناس حينها إنه مات حزنًا عليها، حينها أدرك قليل منهم أن الحب والوفاء للحبيب ورفيق الحياة لا يمكن أن يمتلكهما إلا الرجال.

جائزة كلاشينكوف!

أطلقت ٣٠ طلقة في صدر فراج .. فسقط غارقًا في دمائه.. وسط ذهول المارة من أهالي نجع الحصوة.. الذين فروا هاربين بعيدًا عن الجثة.. بعد القرار الحاسم لحمدان.. بالأخذ بالثأر انتقامًا لوالده بعد مرور ١٥ سنة قضاها القاتل في السجن لم تكن كافية لنسيان الانتقام.

أصبح جسد الرجل الخمسيني مثل الغربال، يمكن لشعاع الشمس المرور منه، لولا تجلط الدم داخل كل فتحة فيه.. قبل سنوات من الآن، وقبل قدومي إلى الصعيد فكرت كثيرًا في تلك البلاد الدافئة، وكنت أعتقد أنها أجمل بلاد الدنيا، خصوصًا في الشتاء.. فالشتاء في موطني مختلف تمامًا.. هناك في روسيا لا مكان للشمس بيننا.. فالثلج يغطي كل شيء.. الشوارع والميادين والمنازل والأشجار، وحتى وجوه الناس يغطيها الثلج.. يتساقط الثلج في بلادي على الطرقات والسكك الحديدية فيعطلها أحيانًا.. بل ويصيب بعض الطرق البحرية

بالشلل أمام حركة السفن ويمنع الصيد.. وتكون له الكلمة العليا على أي شيء، إلا نار المدفئة خلف الجدران.. فهي تسحقه وتعطينا الدفء والسكينة.

كان شتاء الصعيد أكثر صعوبة.. فنباح الكلاب لا ينقطع.. والرصاص يشق طريقه إلى قلوب البشر بغزارة، فيحصد الأرواح رغبة في الثأر.. ما رأيته في الصعيد لا يمكن تخيله.. فلولا أنني كنت شاهدة على مقتل فراج بدفعة كاملة من الرصاص عيار 7.62 × 39 مللي متر، لما صدقت ما يقال عن هؤلاء الناس.

قبل الحادثة بسنوات قليلة كنت في روسيا، وتم نقلي من مصنع الرشاشات الكلاشينكوف ضمن صفقة كبيرة من البنادق إلى إيـران.. وبعد التجربة والعمل الميداني لعدة شهور تم شحن كميات من الصفقة إلى غزة بفلسطين والكميات الأخرى إلى العراق.. وبعد أقل من ٨ أشهر كنت أنا ومجموعة أخرى من زميلاتي في أيدي الميليشيات المسلحة في ليبيا، حيث تم استخدامنا في المواجهات بين الجيش الليبي والثوار هناك.

بعد تدخلات السياسة والنفط في تلك البلاد، تم تهريبنا إلى الصعيد عبر صحراء السودان.. ورغم المطاردات لضبطنا ضمن شحنة من الأسماك المهربة من بحيرة ناصر خلف السد العالي إلى

أسيوط.. وانتهى بنا المطاف أنا و٢٢ بندقية آلية أخرى في مناطق البداري والغنايم والقوصية..كنا جميعنا نتوقع أن يكون لنا دور بسيط في الاستخدام، مثل حراسة المزارع وحماية الناس من قُطّاع الطرق واللصوص مثل جميع المناطق الريفية في العالم، فقد كنت أعلم أن هناك مواجهة حتمية مع الذئاب مثلًا لحماية الغنم أو الضباع والأسود ومفترسات الغابات الإفريقية كما كنت أتوقع.. لكن ما حدث كان مفاجأة.. فليس هناك مبرر لمواجهة دامية بين الجيران في الدور والحقول، أو بين أبناء القبيلة الواحدة من أجل الانتقام والانتقام المتبادل .

كان الثأر لعنة على الجميع، فلم ينته بانتهاء مقتل القاتل.. بل وصل إلى أنه في قرية مجاورة قضى أفراد عائلتين على بعضهما، ولم يبقَ في البيوت سوى النساء والأطفال، بعد أن حصد الثأر عشرات الأرواح منهما.

كان حمدان يعتني بي عناية بالغة، بعد أن التصقت به طوال أشهر بعد عودته من الخليج، فقد كان يفكني وينظفني قطعة قطعة، وأكثر ما كان يؤثر في، بل ويستفزني، أنه كان ينفق على الذخيرة أكثر من إنفاقه على أسرته، ويظل طوال الليل يطلق الرصاص في رسالة واضحة لخصومه أنه دائمًا جاهز للمواجهة في أي وقت،

قبل القبض عليه بعد الحادثة بيومين عقب ملاحقة الشرطة له في الزراعات.

مرت ٨ شهور على الواقعة، قضاها حمدان خلف القضبان قبل الحكم عليه بالسجن المؤبد ١٥ سنة بتهمة القتل العمد لجاره فراج، وخرج بعدها حاملًا كفنه لأسرة حمدان، بعد أن قبلوا بالصلح بسبب ضغوط مارستها الشرطة على الطرفين لوقف شلالات الدماء.

كان المشهد مهيبًا في القرية بعد أن تجمَّع الآلاف من كبار العائلات والقبائل وأبناء القرى المجاورة لقرية نجع الحصواية داخل سرادق الصلح، ليشهدوا وقائع الصلح، التي بدأت بتلاوة القرآن، وقرأ الشيخ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[الحجرات: 13].

ثم كانت كلمات وعبارات تمجد الأمن والأمان والشعور بهما، تلتها عبارات شكر للقيادات السياسية والأمنية والشعبية ولجان المصطلحات.. وبعد انتهاء مراسم تقديم الكفن لأسرة فراج، وبينما كان حمدان في طريقه إلى محبسه داخل سيارة الترحيلات بسجن الوادى الجديد ..فوجئ طاقم الحراسة بسيارتين من ذات الدفع الرباعي تطلقان عليهما النار بغزارة، وخلال دقائق كان

الجميع على الأرض، البعض غارق في دمائه، والآخر يحاول الرد بتبادل إطلاق النار مع من في السيارتين.

أسفرت الواقعة عن مقتل حمدان و3 من العساكر، وإصابة الضابط وأميني الشرطة.. وبعد إجراءات النيابة والصحة في استخراج تصاريح الدفن.. تم ضبط 3 شباب من أبناء عمومة فراج، الذين خططوا للصلح وخداع الشرطة، وتمكنوا من حمدان وهو في طريقه لمحبسه بعد جلسة الصلح.. لتبدأ حلقة أخرى من المطاردات بين العائلتين في الزراعات.. لتزغرد مرة أخرى البنادق الآلية في ليل النجع البهيم.. ذلك الاختراع الذي صدَّره العالم الروسي كلاشينكوف إلى العالم.. ليحقق الرقم القياسي في قتل الأرواح بعد الديناميت.. ولا عجب أن العالم الروسي لم يعلن قبل وفاته عن جائزة للسلام مثلما فعل نوبل.. كان حينها سيُخلَّد اسمه للخير والعمار بدلًا من القتل والدمار.. وكان حينها سيطلقون عليها «جائزة كلاشينكوف».

نجع الحريم!

تهامس النساء في جنازة جدي عن تلك المرأة اللعوب حميدة.. التي فتحت منزلها لرجال القرية.. من أجل المتعة الحرام والأموال أيضًا.. بعد أن استغلت سفر زوجها للعمل بالخليج بعد زواجها بأقل من شهر.

تحدثت سميحة الحفافة عن حميدة، قالت: العاهرة ذهبت إلى الغردقة بصحبة القوّاد حسان الذي يكتم أسرارها مقابل الأموال من أجل أن تلتقي بعشيقها خالد هناك.

أطلقت لأذني العنان لاستراق السمع، ومعرفة ما يدور من النساء، ووجدت ضالتي، حيث كنت حينها أتحجج بالمذاكرة ونحن على أبواب الامتحانات في المنزل بعيدًا عن سرادق عزاء الرجال.

بدأت كل سيدة تدلي بدلوها في مشوار حميدة، منذ أن رشحها خالد لزوجها الذي يدّعي صداقته بصفته من أقارب أمه، ولكنه كان ماكرًا خبيثًا كالثعلب، مخادعًا كالذئب، خسيسًا كالضبع..

لم يتورع في نهش عرض قريبه بدران، غير مكترث بكلام الناس عن غرامياته مع حميدة جهارًا نهارًا.. حيث كان ينتظرها صباح كل خميس كي تتسوق بصحبة شقيقتها في البندر.. وكأنه يقول للقاصي والداني إنه كشف برقع الحياء، وضرب عرض الحائط بكل العادات والتقاليد الأصيلة لأهل الصعيد.. بل كان يتعمد أن يظهر في صورة الماجن زير النساء كي يحصل على إعجابهن، وتكون حميدة وسيطًا بينه وبين الشيطان.

كان يذهب إليها في وقت صلاة الجمعة وبعد العشاء في وسط الأسبوع، وكأنها الزوجة الثانية.. وكان أغرب ما في الأمر أنه كان يصدر الجدعنة والشهامة منهجًا لصديقه بالخارج، ويقول لها قبل أن تغلق الهاتف مع زوجها.. «هاتي أسلّم عليه»، وترد هي «خد واد خالتك عايز يسلم عليك» وتستطرد.. «والنبي واد خالتك معرفش طالع جدع لمين ده مش سايبنا لحظة».. فيرد هو على الهاتف ربنا يخليك يا أبو خالتو.. ويتحدث بكل شهامة بأن أسرة صديق عمره في رقبته طول غيابه، وهو يتهامس، بل ويتلامس ويداعب زوجته في فجور..

تكررت المكالمات بينهما، وفي كثير منها تتحدث حميدة وخالد بأجساد عارية أو نصف عارية على فراشها، مستمتعة بكل

ما يأتيها من الخليج من عطور وبخور وملابس ساخنة.. ترقص وتتمايل بعد شرب الحشيش والبيرة .. وتقول له.. نفسي اجرب الويسكي.. يقول لها كذبًا.. «متقدريش عليه ..أنا حاولت معاه ومقدرتش».. فترد بدلال وهي تغمض عينها: «حراق ولا إيه؟ فيقول «نااار»

مرت الشهور والسنوات واحترفت حميدة المشي البطال.. وانتشرت سمعتها كالنار في الهشيم.. وعرف عنها التواصل مع سائقي التاكسي والميكروباص.. وبدأت تستقبل زبائنها في البيت.. وتسافر القاهرة والغردقة.. بدون رقيب.. وكان زوجها ينفي عنها كل ما يردده الناس.. بل وصل الأمر به أن شقيقه طلب منه أن يطلقها بعد أن ضيعت سمعة العائلة وأصبحت في الوحل.. إلا أنه هدد أخاه بالقتل بعد أن أشهر خنجرًا في وجهه.. وطالبه بالابتعاد عن طريقه وحياته.. أنجبت حميدة ٣ أولاد وبنت.. كانت سمراء بعيون تشبه عيون خالد.. وكأنها كانت لعنه عليها وعلى خالد.. فكل من يراها يقول هي شبه عيال خالد ليه؟ فتقول الناس بابتسامات خبيثة.. مش واد خالة أبوها.. الدم بيحن ..

كان الجميع يقول في قرارة نفسه.. نعم إنها ابنة خالد.. نفس الوجه والقسمات.. ونفس الشعر الأكرت ولون الجلد الأسمر.

كانت حميدة بيضاء البشرة.. حمراء الخدين.. ناعمة الصوت.. إذا تحدثت غنجت.. وإذا ضحكت أسكرت.. ترتدي الطرح الحرير الملونة.. تتعمد إظهار مفاتنها.. خصلات شعرها الأسود تزيدها جمالات.. وجهها ملائكي.. ليست لها مثيل بين نساء النجع.. عيونها مليئة بالشبق.. لا يسلم من سحرها رجل.. مهما كان ..

من وصف النساء لها حلمت بلقائها.. وتمنيت مقابلة حميدة ولو كانت سيئة السمعة، وماذا يهمني والجميع يشتهيها؟ حتى أبي الرجل الوقور.. الذي ترتعد فرائص الجميع منه.. أظن أنه ذكر ذات مرة جمالها خلسة في جلسة مع الرجال .. في نجعنا.. نجع الحريم..

لا أخفيكم سرًا أنني كنت أخجل من ذكر اسم بلدتي بين زملائي.. وذلك لأن نجعنا نجع الحامي.. لا يوجد به رجال.. أغلبهم يعمل بالخارج.. فبعد ضيق الأرزاق يبدأ كل من يقدر على العمل بالسفر إلى القاهرة أو الغردقة أو حتى شرم الشيخ.. حتى يتسنى له الحصول على عقد عمل بالخليج.. وبعد فراغ النجع على النساء والأطفال.. أصبح الناس يقوزون علينا ويعايرون الجميع بأنه نجع الحريم.. وفي روايات أخرى نجع العيال.. أكره

تلك الآفة في أبناء الصعيد.. المعايرة.. شيئًا أكبر من التنمر.. بل هو قتل واغتيال نفسي بلا رحمة..

نعود إلى حميدة التي فجرت.. ورفضت العيش في دار زوجها القديمة بوسط القرية بمنزل والده.. وأرغمته على شراء قطعة أرض بحجة منع المشاكل بينهما.. بينما كانت تمهد الأجواء لنزواتها.. فما أسهل أن يدخل لصوص العشق إلى دارها من الزراعات الكثيفة لنباتات الموز.. والتي يطلقون عليها الجبل الأخضر.. وحقق لها بدران ما أرادت.. فقد كان أمامها كالطفل الأبله.. لا يرفض لها طلبًا.. لا يصدق إلا كلماتها.. خدعته بكل ما تملك.. ولم لا فلا أحد يردعها.. فمثل بدران الذي كان من عائلة لا تنتمي أصلًا إلى النجع.. لا عصبية تحرك أحدًا من أقاربه لمنعها مما تفعله.. إلا أن الناس تبرأوا منه بسبب أفعال زوجته.. وبعد سنوات من الغربة عاد حمدان بعد فصله من الشركة بالخليج عقب مشاجرة نشبت بينه وبين عامل هندي أحدث به إصابات جعلت الكفيل ينهي رحلته بقرار عاجل ومفاجئ..

6 أشهر قضاها حمدان في النجع سمع خلالها الأهوال.. وصلته مقاطع فيديو لرقص زوجته.. وأخرى لها في حمامات السباحة بالبكيني.. وثالثة بلباس البحر بالغردقة.. وغيرها من

كلمات وتحركات في المولات.. تناقلها الناس فيما بينهم.. وسمع غمزهم وضحكهم على المقهى الرئيسي الوقع في صدر البلد.. أدرك حينها أن شقيقه كان على حق وأن حميدة خدعته طوال 15 عامًا عاشتها بين أحضان الرجال..

كاد عقله يطير من التفكير.. شحب وجهه وهزل جسده.. وفكر مليًا حتى قرر التخلص منها.. وبعد التخطيط لأيام.. وشراء طبنجة من ماركة حلوان و5 طلقات.. تراجع بعد أن تخيل مصير أبنائه من بعدها.. وتساءل كيف ستكون سمعتهم؟.. كان لديه يقين أن حكاية حميدة سيتناقلها الأحفاد من الأبناء وستظل عالقة بالأذهان أبد الدهر.. لذلك قرر اختيار أسهل الحلول.. وأطلق على نفسه النار.

فهرس

الإهداء 5

كانت عذراء 3

درب الجناين! 7

الانتقام في القرية! 11

المنحرف! 17

النظام السابق! 22

بدرية .. وعليان! 26

سيدي .. رماح! 32

شيوخ القرية .. ! 36

«عم شاهين»..! 38

كانت عذراء! 42

لعنة البخل! 46

مُسجَّل خطر! 49

مقام الشيخ «عمار»! 55
وفاء الرجال! 60
جائزة كلاشينكوف! 62
نجع الحريم ! 67